الفصل الثاني والعشرون
"كيف تكون النهاية؟!"

عاد هشام إلى الجهاز ليجد اللواء في انتظاره بسرور وحبور بالغ:

- براڤوا عليك يا هشام، أنا فخور بيك جدًا.

- ده شرف ليّا يا منير باشا، كله بفضل ربنا وتوجيهات سعادتك.

خرج هشام من مكتب اللواء متجهًا إلى مكتبه؛ حيث كان يحتجز به جمال، والذي رمقه بنظرة نارية ما إن لمحه؛ فأردف هشام:

- مستغرب مش كده! عارف إيه مشكلتك يا جمال؟ إنك فكّرت إنك الوحيد الذكي واستغبيتنا.

- أنا مش فاهم أنت بتتكلّم عن إيه، هشام بيه أنا لَحْت حد طالع العمارة دي وشكيت فيه، ولما طلعت لقيته مصوّب بندقية ناحية القاعة ولما شافني خبَطْني وهرب و.. وفجاة لقيت عاصم ورجالته جايين يقبضوا عليّا.

- امم حلوة التمثيلية دي، لا ومهروسة في مليون فيلم عربي وأجنبي، اللي انتَ ماتعرفوش بقى يا جمال إننا كشفناك من وقت طويل.

- كشفتوني! يعني إيه؟

- أنا أقولك يعني إيه.. الموضوع بدأ لما جَات الإخبارية عن مكان كارولين، هناك لما كنا أنا وسامر بنفتش في الشقة، لقيت طبعًا الورقة الفارغة اللي انتَ سبتها عشان تضلّلني بيها وأتوَهّم إنكوا عايزين تأذوا جنة؛ عشان لما

تضربوني وأنا معاها يتقال إن هي اللي مقصودة وإني كنت بدافع عنها، وتخلصوا من الشوكة اللي واقفة في زوركوا، لكن اتعلّمنا يا سيادة النقيب إن المجرم حتمًا ولابد بيسيب وراه خيط رفيع.. غلطة صغيرة غير مقصودة.

انتبه جمال لحديثه منتظرًا معرفة ذلك الخطأ؛ فتابع هشام:

- وقت لما لقيت الورقة سامر كان وشه جايب مية لون زي ما يكون حد صعقه، وقتها فكرت إنه بسبب الورقة، لكن بعدها رجعتله تاني وسألته عن سبب اضطرابه وعرفت إنه لقى في الشقة علبة شبه علبة الدوا بتاعك، بتاع الصداع والأعصاب، ده اللي ادّيتني منه وإنه خده من ورايا لحد ما يتأكد، ولما اعترفلي بكده عملنا كشف البصمات، بس للأسف كانت شبه اتمسحت من على العلبة، لحد يوم قتل صاحب الأجانس لما دكتور الطبّ الشرعي أكّدلي إن طول المجرم مايقلّش عن ١٨٠ ومش أقل من كده، وقتها استبعدت سامر من دايرة الشك نهائي، ومبقاش فيها غيرك انت، لحد ما شوفتك وانتَ بتراقبني في الحصري عشان تقتلني، ومن اليوم ده بدأنا خطتنا.

- خطتكوا؟!

- أيوَه، أنا وسامر، سامر اللي حاولت بكل الطرق تشكّكني فيه بشكل غير مباشر، طبعًا زي إنك تدفعه يسأل عن معلومات أنا ماقولتهاش قصدًا، أو تشكّكه في جنة وغيره وغيره، مانْكِرْش إني في البداية كنت شاكك فيه أكتر، لكن انتَ نسيت إن كل ما زادت الشبهات حول المشتبه فيه ده بيضعف الاشتباه فيه، وخاصة لو كان حد بذكاء سامر، حتى سيادة اللواء كان معانا،

بس عشان نقدر ناخد منه الإذن والصلاحيات بمراقبتك ومراقبة تليفوناتك وغيره، كان لازم يكون معانا دليل على تورطك.

حدجه جمال بنظره المرتقب؛ فتابع هشام:

- أحمد بدر، فاكره؟! كنت متأكد من البداية إنه مايعرفش كارولين ولا عمره قابلها، عملناله فخّ بسيط، فصَّلْنا القضية على مقاسه وفهّمناه إنه شايل الليلة كلها، وفي لحظة انهار واعترف بكل حاجة، وإنك انتَ اللي جبته يعمل الدور ده على أساس إنك هتخرّجه منها، مجرد واد بيعرف اللغة ورايح يستقبل سائحة عادي جدًا، هنا سيادة اللواء اقتنع بإدانتك، بس لو قبضنا عليك مش هنعرف هدف كارولين ولا هنقدر نقبض عليها، وهنا بقى جِه دور الخطة التانية.

في يوم الحصرى نزلت بالليل قابلت سامر وكان معاه أخبار جديدة عن رجل أعمال بيجيله تهديدات من مافيا دولية بتتاجر في الأدوية الفاسدة ومستلزمات طبية ملوثة، واللي بعد ما قدْرُوا يوردوا له شحنة مستلزمات طبية ملوّثة ويدخلوها مصر، استندل معاهم وماحوّلش ليهم باقي الفلوس، وقال لهم كفاية عليكوا اللي خدّتوه، هدّدوه وبعتوله واحد من رجالتهم يتفاوض معاه، ويا إما الدفع يا القتل، وكانت النتيجة إن هو اللي قتل الراجل بتاعهم، وقتها استأجرِت المافيا كارولين، ولأنها كانت مطلوبة قبل خمس سنين فكان لازم يكون ليها عين في الجهاز، وطبعًا انتَ ماتأخّرتش، هنا بقى كان لازم ننفذ الخطة، أولًا عشان أأمّن نفسي منك، ثانيًا عشان لما أدّيك

الأمان وتعرف إنّي شاكِك في حد تانى هتاخد راحتك، ولما تاخد راحتك هتغلط، وقد كان..

يوم ما كنت في المستشفى انتَ خرجت من عندي على كارولين عشان تبلغها الأخبار، وقتها سامر كان بيراقبَك، وطبعًا كان من السهل بعد كده إننا نزرع كاميرات في البيت ونشوف ونسمع كل مخططاتكوا.

اندهش جمال يشعر بالغباء، حدّق بهشام بازدراء مستخبرًا:

- معنى كده إن محدش ضربك بالنار يومها.
- اسم الله عليك.. ما انتَ ذكي أهو.
- بس لعلمك أنا مش غلطان في كل اللي عملته.
- وأنا مش مستغرب رد فعلك، أكبر المجرمين في التاريخ قالوا كده لحظة القبض عليهم..كرولى، آل كابونى.. وغيرهم كتير ما انتَ عارف.
- بجد؟! ليه شايفنى سفاح ولا ماشي أقتّل في الناس، ده راجل حقير، مرّض ناس كتيرة بالمستلزمات اللي دخّلها مصر، ودول كده ولا كده كانوا هيقتلوه وهو يستاهل الصراحة، وأنا سلّمته ليهم وخدتّ اللي فيه النصيب.
- بقى مش مكسوف من نفسك وانتَ بتقول كده! ده مجرم يبقى يتقدّم للعدالة... أنا بكلم مين؟ خلاص انت انتهيت.. انت مش بس اتورطّت في الجريمة دي، انتَ كمان كنت هتورّط نفسك في جريمة قتل لما فكّرت تتخلّص مني.

لم يردّ جمال، بل أطرق برأسه بعيدًا يشيح بنظره بلا مبالاة؛ فطلب هشام من العسكري أن يأخذه من مكتبه.

*****

خرج هشام من جهاز الأمن الوطني، تتغمده الفرحة لإتمام مهمته وتكليلها بالنجاح، لكن تلك الفرحة ليست سوى نقطة في بحر آلامه وحزنه، كاد يتخذ طريق منزله، لكنه سرعان ما تذكر أمر الخطبة متممًا:

- يا خبر أسود! زمان القيامة قايمة هناك.

انحرف عن ذلك المسار، واتخذ بدلًا منه طريق منزل لارا، وصل هشام وكان باب المنزل مفتوحًا وبه عدد لا يستهان به من أعمامها وأقاربها من الدرجة الأولى يواسونها حتى ظهر أمامهم هشام، تنحنحَ ودخل بثقة من لم يفعل سوءًا، وألقى السلام عليهم، فهبّ والدها في وجهه صائحًا:

- أهو هلّ علينا بطلّته البهية، انتَ ليك عين تيجي لحد هنا بعد اللي عملته في بنتي؟!

التفتَ هشام ساخطًا إلى منيرة ليجد عينيها تنقدحان غضبًا؛ فحاول هشام يهدئ من ثائرته، وأردف برفق:

- يا عمي ممكن تسمعني؟

- أسمع إيه وأنيّل إيه!

تدخّل أحد أعمام لارا قائلًا برزانة:

- اسمعه بس يا عبد الحكيم وبعدين نحكم عليه.

أومأ الرجل على مضض وجلسوا؛ حيث ابتدر هشام:

- أولًا أنا آسف يا عمي، آسف ليكوا كلكوا.. بس دي كانت قضية أمن قومي، وصادِف وقت المهمة وقت الخطوبة، الحقيقة إن المجرمين اختارُوا المعاد ده بالذات عشان أكون مشغول عنهم وينفّذوا مهمتهم بسهولة.

- آه.. تقوم انتَ عشان تبقى البطل الشجاع، الظابط المخلص لشغله تسيب بنتي وسط المعازيم وتهرب، ليه مفيش ظابط غيرك؟

- أنا ماهربتش يا عمي وماسبتش الحفلة غير بعد ما لبستها الدبلة، ولو ماكُنتِش سبته وقتها كان ممكن أتقتِل أو الحفلة دي كلها تقلب ضرب نار، كان ممن ناس تانية تروح فيها، وأظن إن سيادة اللواء بنفسه فهّمكوا الموضوع.

- وأنا كل ده مايهمّنِيش، انتَ ماقدّرْتِش بنتي وفضّلت عليها شغلك.

نهض هشام ساخطًا، وخلع الدبلة من يمنته ووضعها على الطاولة أمام والدها قائلًا:

- وأنا كده عملت اللي عليّا، وأدي دبلتها أهي.. سلام.

التفت عبد الحكيم إلى منيرة هادرًا:

- شايفة اللي كنتي بتحكي وتتحاكي بيه، شايفة آخرة تربيتك.

لم يكمل حديثه حتى فوجئ بهشام يمسكه من تلابيبه بعنف صائحًا بهياج:

- أنا ساكت لك من الصبح عشان انتَ راجل كبير، لكن أقسم بالله.. ورحمة أبويا لو فكّرت بس تضايق منيرة بكلمة ما هرحمك.

تركه هشام بقوة ليسقط الرجل على الأريكة خلفه، ومضى هشام يمسك بيد منيرة لتذهب معه، لكنها سحبتها منه بغضب؛ فأشار لها بنظرة توسّل ألا تفعل، وأمسك يدها ثانية؛ فأذعنت لتوسله حفاظًا على ماء وجهه، وقبل أن يغادرا تمامًا استوقفهما صوت ذلك الرجل ساخرًا:

- زعلان من كلامي وبيناديلها منيرة وكأنها بتلعب معاه في الحارة مش الست اللي ربّته.

تسمر هشام مكانه وكأن كلمات عبد الحكيم سهامًا اخترقت جسده، أضرمَت النيران في صدره، والتفَتَ إليه بوجه دامٍ وكاد يعود له، لكن أوقفته منيرة وهزت برأسها ألّا يفعل؛ فرضخ لطلبها وغادر معها.

*****

في منزل هشام:

دلفَت منيرة إلى غرفتها مباشرة مخلّفة سحابة من الحزن والضيق، وقف هشام في الصالة زافرًا تتخلّل أصابعه شعر رأسه باستشاطة؛ فباغتته حنين بضمّه تستلق برأسها على صدره؛ مما أثار تعجبه في تلك اللحظة، فنظر لعماد بدهشة ليراه باسمًا، ثم التفتَ إليها متسائلًا فأخبرته:

- أنا أسعد واحدة في الدنيا النهاردة.. أخيرًا خلِصْت من البتّ اللزقة دي، ودلوقتي بقا مفيش حاجة تمنعك عن حبك، ولا إيه؟!

فكر بحديثها، وتنهد قائلًا:

- شايفة كده؟!

تدخل عماد:

- يا عم انتَ لسه هتفكر؟ خلاص السكة اتفتحِت قُدّامك.. شوط بقى.

- طب ومنيرة؟

أجابته بابتسامة هادئة:

- ادخل هديها بكلمتين حلوين من بتوعك وكل حاجة هتبقى تمام.

وقف هشام يبدّل نظره بينهما؛ فدفعاه ناحية الغرفة؛ فطرق الباب ودخل ليجدها تعلّق ملابسها في دولابها دون الالتفات إليه، فاقترب منها وأمسك يدها لتنتبه إليه؛ فالتفتت نحوه تشهر سبابتها في وجهه هاتفة بضيق:

- عايز إيه منّي يا هشام؟ مش عملت اللي في دماغك خلاص.. سيبني بقى لو سمحت دلوقتي، ومن بكرة أنا ماليش قُعَاد في البيت ده.

أمسكها هشام بإصرار وأجلسها على السرير، ثم جثَا أمامها على الأرض وألقى برأسه على ساقيها، وأردف برفق:

- فاكرة يا منيرة زمان وأنا صغير؟ كان لما حاجة تضايقني أجرِي عليكي وأقعد القعدة دي، وانتِ تمسحي بإيدك على شعري وتسألِيني على اللي مضايقنى وبعدها تحضنيني، انتِ الوحيدة اللي كنت بطلّع لها كل اللي جوايّا حتى لو كنتي انتِ اللي مزعّلاني، والنهاردة ابنك موجوع قوي، موجوع عشان حاول يرضيكي بحاجة هتهدّ له حياته، انتِ كان كلّ همك

إنك تطّمني عليّا، بس لارا دي كانت آخر واحدة ممكن أعيش معاها السعادة والاستقرار.. أنا بحب يا منيرة، والبنت اللي بحبّها دي ملِت قلبي وعنيّا، مش قادر أشوف بنت غيرها ولا أتخيل حياتي غير معاها.

رفع رأسه ليواجه عينيها متسائلًا:

- انتِ فهماني، صح؟

تلالأت الدموع في عينيها، وأمسكت بوجهه بين كفيها بحنان، قبّلت جبهته واحتضنته قائلة بأسف:

- أنا آسفة يا حبيبي، آسفة إني مافهِمْتش اللي في قلبك ده بدري وخليتك تعاني كل ده، وأكيد هي كمان زمانها موجوعة قوي وهي بتشوف حبيبها بيتخطب لواحدة تانية.. صحيح هي اسمها لإيه؟

ابتسم وأجاب:

- جنة.

- طب مش تروح تطمّن قلبها بقى!

- انتِ.. قصدك أروحلها دلوقتي؟

أومأت برأسها عدة مرات؛ فاتسعت ابتسامته وقبَّل يديها بامتنان، ونهض ليغادر؛ فأوقفته حنين:

- إيه رايح فين؟

- رايح لها.. هتسامحني، صح؟

اتسعت ابتسامتها وأومأت قائلة:

- أكيـــــد.

ففتح الباب ليغادر، ثم عاد وقبّل رأس أخته متمتمًا "شكرا"، ثم غادر.

*****

كانت جنة تجلس في التراس الخارجي للمنزل، حينما توقفت سيارة هشام أمامه، لم تسمع صوت مكابحها ولا تهتم لأمر العالم من حولها؛ فقد عزلتها أحزانها في كوكبة لم تستطع الخروج منها، لكن ثمة شخص واحد بإمكانه ذلك وها هو يقف أمامها، الشيء الذي لم تستطع تفسيره، هل هي تتخيل أم أنه أمامها فعلًا؟! وإن كان أمامها ماذا يفعل هناك؟! تدور برأسها العديد من الأسئلة، لكنه أجاب لها على أول سؤال حينما تحدّث؛ فعلمت أنها لا تتوهم:

- ازيّك يا جنة؟

اتتفضَ قلبها وكأنها غابت عن الحياة وقد أُنعِش قلبها من جديد، فوجدتها فرصة مناسبة لإخراج ما تكتم حتى لا تموت حسرةً:

- انتَ ازّاي تيجي هنا تانى برجليك؟ إيه مابقاش حد هامّك؟ وكمان بتسألني ازّيّك؟ إيه كنت مستنّي تيجي تلاقيني بقطّع في شعري ومقهورة ومنهارة مثلًا..

- جنة.. جنة اهدي أرجوكي واسمعيني.

- إيه اهدِي دي؟ انت شايفني مجنونة؟ وانتَ بقى بعد ما خلّصت السهرة مع خطيبتك المصونة جايلي ليه؟

- انتِ عرفتي ازّاي إن خطوبتنا كانت النهاردة؟

- والله! ده اللي فارق معاك عرفت ازّاي؟ من ده.

وضعت هاتفها أمام ناظريه مفتوحًا على حساب الفيس بوك، وتابعت بهيستريا:

- شايف الفيديو ده كمان؟ وبص.. بص الصورة دي حلوة قوي، مش كده؟

انهارت ولم يعد بمقدورها التظاهر أكثر من ذلك، وجاء وقت العتاب:

- ليه عملت فيّا كده؟ جاوبني ماتفضلش ساكت وتبص في الأرض.. بص لي أنا وقولّي أنا آذِيتَك في إيه؟

طالعها والدموع بعينيه:

- والله أنا حبّيتِك بجد. ماقدرتش أكون لحد غيرك.

- انتَ هتجنّني، أومال الصور والفيديوهات دول إيه؟

- يا جنة أنا كنت مجبور على الجواز منها قبل ما أعرفك..

قاطعته غير مبالية:

- قديم قوي جو مجبور ده، وكمان انتَ مش بنت ولا شخص ضعيف عشان حد يجبرك على الجواز من واحدة مابتحبهاش.

- محدش أجبرني آه، بس يمكن ضميري أو إحساس إنّك عايز تفرّح حد له فضل عليك.. لارا تبقى بنت أخت منيرة مرات أبويا، السّت اللي

ربّتني بعد أمي وأبويا ما ماتوا وماتجوّزِتْش عشان تربيني أنا وأختي لحد ما بقيت الرائد هشام اللي انتِ شايفاه دلوقتي، كانت أمنية حياتها أتجوّز لارا، وخطبتها قبل ما أشوفك بأسبوع بس، بعد ما حبّيتك ماقدِرْتش أكمل معاها، كنت هفسخ الخطوبة من كام يوم، بس للأسف كارولين كانت خطّتها إنها تخلص مني في الخطوبة وتنفّذ مهمتها في نفس الوقت، ولما عرفنا كده ماكانْش ينفع ألغيها، كانت مجرد كمِين وكنت مجبور للمرة التانية إنّي أكمّل، بس خلاص مابقتش قادر، المرة دي فسخت الخطوبة ونهائي، ومفيش أيّ حد هيقدر ياخد مكانك في قلبي.

- والمفروض إني أصدق!

- لازم تصدّقيني عشان مستحيل أكذب عليكي.

- ما انتَ كذبت قبل كده، عيّشتني أجمل أيام حياتي وفجأة قلَبْت حياتي جحيم.. حرام عليك بقى سيبني في حالي.. سيبني في حالي.

قالتها والبكاء ينال منها؛ فلم يجد سبيلًا سوى ضمها إليه؛ فحاولت التملص منه، لكنه زاد في ضمها تنهمر دموعه على رأسها، بينما ابتعدت عنه ثائرة:

- إياك تفكّر تلمسني تاني، أنا مش الحيطة المايلة اللي تيجي تقضّي معاها أوقات حلوة وتروح تخطب واحدة تانية، واتفضل لو سمحت.

- يعني مش هتسامحيني.

- مش هقدر أسامحك.. امشي لو سمحت.

زادت في بكائها؛ فلم يجد هشام مفرًا سوى الرضوخ لطلبها، وقال:

- أنا همشي يا جنة عشان أسيبك تهدِي وتفكّري، بس هرجعلك تاني، انتِ ليّا وأنا ليكي، وهنكمل عمرنا مع بعض وده وعدي ليكي، افتكريه كويس.

ذهب من أمامها وظلت ترقب طيفه بقلب ممزق، حتى سقطَت أرضًا وغرقت في دموعها تزداد شهقات نحيبها، إلى أن سمعت صوتًا أخرس الحياة من حولها.. صوت طلق نارى يدوّي صداه في المكان، ارتجف قلبها وارتعشَت أوصالها تجرّ ساقيها مسرعة حتى خرجت ليصدمها هول المشهد الذي كان أكبر من أن تحتمله عيناها، أو أن يصمد له قلبها، كيف تكون تلك النهاية وهي لم تقررها بعد؟! كيف تُسلب منها حياتها بهذا الشكل؟! لم تتخيّل أن نهاية كل شيء كانت تقف على أعتابها، وما إن حان وقتها أسدلت الستار ورفعت رايتها.

- هشاااااااااااام!